إشكالية التعبير البلاغي وعلاقته بالسياسي

عبد الرحمان مزيان

مدخل

إن أقدم وأرقى شكل من الأشكال الفنية التي أبدعها الإنسان، هو فن التعبير، فهذا النوع من الفنون منذ بدايته ارتبط بالحكمة ومحبتها وبالديمقراطية التي كانت وما تزال أحد وجوه هذا الفن. بل أنه لا يمكن الحديث عن فن الفصاحة وفن الخطابة بمعزل عن الفلسفة والديمقراطية والمجتمع المدني والمدينة في حد ذاتها. فالعلاقة بين هذه العناصر علاقة تلازمية فلولا الفصاحة والخطابة لما كان للديمقراطية من وجود. وهذا هو حال نشأة المدينة أو المجتمع المدني باعتبار الأولى سلوك حضاري، وأن الثاني انعاكس لها. ولهذا نجد كل من أثينا وروما قد عرفت المجتمع المدني باعتبار وجود الفلسفة ووجود الفن التعبيري الذي وضعت له شروطا بلاغية. ذلك أنه وبكل بساطة لا يمكن للفرد أن يرقى إلى مواطن دون أن يكون مؤسسا لها ومشاركا فيها. وهذا لن يتأتى إلا إذا كان واعيا بدوره، وهذا الوعي يأتيه من الفن التعبيري الذي عليه أن يتعلمه من السفسطائيين والفلاسفة والخطابيين بصفة عامة.

إن المواطن ملزم في المجتمع المدني بأن يكون ملما بقضايا المجتمع الذي ينتمي إليه. وأول القضايا التي تطرح أمامه باستمرار هي القضايا الخاصة مصالحه، وعليه فقضاياه تحتاج منه أن يكون عارفا بقوانين الجانب الذي تنتمي إليه. ففي الوقت الذي تكون مصلحته محل نقاش عليه أن يدافع أو يتنازل عنها بحسب الموقع الذي يكون فيه. أما الشيء الوحيد الذي لا يمكنه التنازل عليه ويلزمه الدفاع عنه هو حريته. لما

يكون أمام القاضاة والمحلفين الشعبيين، عليه أن يقدم الدلائل والبراهين ليقنعهم. فالدلائل والبراهين تقتضي منه معرفة عدة شروط أساسية بدونها لن يستطيع إقناع أحد. وهذه الشروط هي:

1. الخطابة.
2. الفصاحة.
3. البرهنة.
4. البلاغة.

طبعا إن هذه الشروط التي من الواجب أن تتوفر في المواطن للدفاع بها على حريته ليست مطروحة في الطريق. بل عليه أن يتعلمها. ومعلموها هم السفسطائيون الذين أسسوا مدارس يعلمون الناس الفصاحة والخطابة ليدفعوا بها عن قضاياهم. والمعروف على هؤلاء الذين خالفهم الفلاسفة أنهم لا يلتزمون بالطرق والمناهج الفلسفية. أي تلك السبل التي يعتمدها الفيلسوف في إقناع الآخرين برأيه. بل منهجه قدمت له عدة انتقادات. لكنه يبقى ضروريا للمواطن الإغريقي لأنه يعلمه كيف يستعمل اللغة ويعبر بها. ويلقنه أيضا أن للغة طرق كثيرة في التواصل والتعبير. وأن له الحق في استعمال الألفاظ بالكيفية التي تضمن له الحق في الحفاظ على حريته. لأن حرية التعبير كانت في العصور اليونانية مرتبطة بالشفهي. لهذا كان السفسطائيون يلقنون المواطنين طرق ووسائل التعبير الشفهية.

نشأة الخطـــابة

لقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ نشأة الخطابة الغربية، لكنهم لم يختلفوا في ميلادها في حضن الفلسفة اليونانية. فهي تكون قد ظهرت في صقلية إبان القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك بفضل فلسفة أمبيدوكل وأتباعه كوراكس Corax وتيسياس Tisias حوالي سنة 467 قبل الميلاد.[1] وقد أصبحت مهنة تدرس بالمقابل. وأول من امتهنها هم السفسطائيون فهم مؤسسو الخطابة: «وقد اعتبروها جزءا جوهريا في توجيههم لتعليم المواطن الحر في الدولة - المدينة بالاستدلال والحجة

والتفنيد والبرهان، وبإيجاز الدفاع عن مصالحه الخاصة بقوة الكلمات والحجة والفصاحة» [2]

لكن هذا السلوك لم يكن يعجب أفلاطون الذي كان ينعتهم بأنهم السبب الرئيسي في انحطاط أثينا. لأن الخطابة الجيدة بحسبه هي الفلسفة. فهذا الصراع بين أفلاطون والسفسطائيين كان في حقيقة الأمر صراعا بين الفلسفة/ البرهان، وفن التعبير. ذلك أن كليهما ينشد الإقناع. إذن فالعملية الفلسفية أو البلاغية لها هدف الإقناع أي: أن الهدف واحد والوسائل تختلف بحسب خصوصية كل مجال. لكن هذا الإقناع لكي يتحقق يجب أن تتوفر مجموعة من الشروط والتي بدونها لن يصل لا الفيلسوف ولا البلاغي إلى غايته. فما هي إذن هذه الشروط؟

أولا: أن تكون قضية.

ثانيا: أن يكون طرفان أو أكثر.

ثالثا: أن ترتبط بزمان ومكان.

هذا بصفة عامة، لكن لما نضعها في سياقها الفلسفي أو السفسطائي حينها نكون ملزمين بوضع السياسي موضع اعتبار. لقد أشرنا آنفا أن السفسطائيين كانوا يبتغون من تعليم الخطابة الرقي بالفرد داخل الدولة - المدينة. «فهم لم يكونوا رواد الخطابة وحسب بل كانوا مستعدين بلا شك بأن يكرسوا أنفسهم لها ويلبون حاجة هذه الخطابة التي ترافق تطور الحرية الفردية في كل اليونان» [3]. فأول شيء مهم هو أنه لا يمكن الحديث عن مجتمع مدني بأفراد جاهلين بقواعد الخطابة أي أن المجتمع المدني يتطلب بل هو نتاج أفراد واعين بدورهم الاجتماعي ولا مكان للجهلة فيه. وإن كان السفسطائيون قد تحملوا عناء التلقين، فإن جورجياس وتلميذه إسقراط هما من وضعا تعليمات فن المرافعة:

1- إيضاح مخطط نموذجي للخطاب (استهلال، عرض، شهادات، مؤشرات، احتمالات، براهين نقض... تلخيص)

2 ـ أصل القانون ـ السياسي للفن (الأبعاد الحاضرة في تجديد الفائدة التي تستفيد منها الخطابة منذ أربعين سنة) الذي يحمل بعدا نزعيا ويصلح لترتيب الصراعات والخلافات. فالخطابة تفرض نفسها في النظريات التطبيقية مع الأخلاق والسياسة (إن الكلام مع الفعل نشاط سياسي): الاختيارات والمجادلات تكون فيها محتومة ومستلزمة للبرهنة. كما أن بداياتها واستقرارها غير مفصولة عن ظهور النظام الديمقراطي.

3ـ توجهها توليدي وتداولي: يعتبر الكلام في حدود القصدية والتكوينات المقنعة التي ينسجم معها[4]. ويبقى أن كل هذه الشروط تخضع لعاملي الزمان والمكان اللذان يمنحانها خصوصياتها:

أ ـ إذا كان جنس الخطابة قضائيا فإن المستمع يكون قاضيا والزمان ماضيا. أما الوسائل المستعملة فهي الاتهام والدفاع والنتيجة تكون إما عادلا أو غير عادلا.

ب ـ إذا كان جنس الخطابة استشاريا فنوع المستمع يكون تجمعا والزمان مستقبليا أما الوسائل فهي الإقناع والردع والنتيجة تكون نافعا أو ضارا.

ج ـ إذا كان جنس الخطابة احتفاليا فإن المستمع يكون متفرجا والزمان حاضرا أما الوسائل المستعملة فهي المدح والعتاب والنتيجة تكون جميلا أو ذميما.

لكن تبقى البرهنة أهم عنصر في هذه العملية، لأن الخطيب/ المتقاضي عليه أن يقنع المستمع. وهذه العملية هي فن التعبير البلاغي. ولن تتحين هذه المسألة إلا بفضل كل من الخطابة والفصاحة والبرهنة. كيف ذلك؟

ماهية الخطابـــة:

إن المواطن الذي يستعمل الخطابة ويكون فصيحا في خطابه ويبرهن لمستمعيه من أجل الإقناع لابد ـ كما رأينا آنفا ـ أن يكون قد وصل إلى درجة من الوعي، عن طريق التعلم والتلقين ودراسة الفلسفة. فهذا المجتمع الذي يصل الفرد فيه إلى درجة محبة الحكمة، مستعملا الفن التعبيري في خطابه ليدافع عن قضاياه، هو ما نسميه بالمجتمع المدني. إن هذا الذي نسميه مجتمعا مدنيا يجب أن تتوفر فيه مجموعة من

الشروط التي يضعها أرسطو وهي أن المدينة نتاج اتحاد سياسي محقق بين عدة قرى[5]. وهو أيضا المجتمع الذي يستحق أن نسميه مجتمعا مدنيا. لأن هذا النوع من المجتمعات ينبني على الفلسفة التي بدورها تخلق الفن. وهو شأن فن التعبير الخطابي الذي استند إلى القواعد السفسطائية وفلسفة أرسطو، وحقق مبتغاه. والخطابة صناعة، تعلم وهي أجناس أربعة:

1. المخاطبة البرهانية: وهي التي تكون من المبادىء الأولى الخاصة بكل تعليم، وهي التي تكون بين عالم ومتعلم بشأن أن يقبل ما يلقي إليه المعلم، لا أن يفكر فيما يبطل به قول المعلم، مثل ما يفعله السفسطائيون.

2. المخاطبة الجدلية: هي التي تتألف من المقدمات المشهورة المحمودة عند الجميع أو الأكثر.

3. المخاطبة الخطبية: هي التي تكون من المقدمات المنظومة التي في بادئ الرأي.

4. المخاطبة المشاغبية: هي التي توهم أنها مخاطبة جدلية من مقدمات محمودة، من غير أن تكون كذلك في الحقيقة[6].

منذ نشأتها ارتبطت الخطابة بالفصاحة، بل هي كما يقول أرسطو فن قدرة الإقناع بالخطاب. «إنها قدرة تأمل ما يمكن أن يكون خاصا للإقناع لكل قضية.»[7]. هكذا يعرف أرسطو الخطابة على أنها فن، وهذا الفن يتحدد بالوظيفة الأساسية للخطابة والمتمثلة في الإقناع، أما الوسيلة التي يتحقق بها هذا الإقناع فهي الخطاب، فلا غرابة أن نجد أرسطو يقرنها بالفصاحة التي هي امتلاك مادة الخطاب، وهي أيضا التكلم كما يجب من أجل إعطاء الخطاب ظهورا لائقا به. فهي بالنسبة إليه وسيلة للإثبات بالدلائل القاطعة في هذا الصدد يقول جون جاك روبريو: «إذا كان السفسطائيون يمتدحون الخطابة لسلطتها، فإن أرسطو يقدرها لضرورتها. معه لم تعد علما للإقناع صالحا لأن يحل محل القيم، بل أصبحت وسيلة للبرهنة، بفضل المفاهيم المشتركة وعناصر الدلائل العقلانية، من أجل جعل الأفكار مقبولة لدى المستمع. للعلوم لغتها، لكن هذه اللغة ليست في متناول الجميع: إن للخطابة وظيفة إيصال الأفكار، فهي

ليست قادرة كليا، ولا خاضعة للفلسفة، لكنها ببساطة مستقلة.» [8]. لكن هذا الاستقلال الذي يتحدث عنه أرسطو يشبوه نوع من الغموض. هل هي مستقلة عن كل العلوم؟ أم أنها مستقلة في بعض الجوانب الخاصة بها؟

الإجابة عن هذا الإشكال يقودنا إلى تحديد الوسائل والأدوات التي تعتمدها الخطابة في سيرها ومعالجتها للقضايا. بالتأكيد أن الخطابة كما أكد عليه السفسطائيون وأرسطو ذاته أنها فن، فالسفسطائيون اعتبروها فنا بصفتها وسيلة للإقناع. أما أرسطو فاعتبرها فنا بصفتها وسيلة للبرهنة. فهي في كلتا الحالتين تعتمد على الفلسفة، فهي تستعمل في تحليلها المنطق والقياس والبرهان والجدل والمقدمات والنتائج، كل هذه العناصر أدوات فلسفية في جوهرها. وهي تستعملها بحسب مهام الخطيب الخمسة والتي هي:

1. الايجاد: L' invention: إنه الخطوة الأولى في لإعداد الخطاب فهو المعقد والأساسي بالنسبة لإلى باقي العناصر الأخرى. وضروري عند كل الخطباء [9]، ولهذا ينبغي في الخطابة العثور على الموضوع الأساسي والحجج التي تستخدمها بغاية الإقناع. وهذه الحجج هي بالنسبة إلى أرسطو الشاهد Exemple والقياس الإضماري Entymème. والمادة الأولية للحجج مخزونة في مستودعات ذهنية تسمى «المواضع». وهي عبارة عن كل أنواع البدائه التي تتقاسمها الأطراف المساهمة في الخطابة. وتستعين الخطابة علاوة على ذلك بالعواطف، وبهذا تكتسي دراسة الطبائع Ethos والأهواء الكثير من الأهمية في هذا المجال.

2. الترتيب La disposition: يأتي في الخطوة الثانية ترتيب المواد التي حصلت في الخطوة الأولى، وهي مواد فكرية وعاطفية وحججية مكرسة للإقناع. ويتخذ هذا الترتيب الصيغة الآتية:

أ. التمهيد Exorde: وغايته إثارة انتباه المستمع وتعاطفه والكشف عن الموضوع، ووظيفته الأساسية هي الإمتاع.

ب ـ السرد Narration: وهو عرض الوقائع. وينبغي أن يكون واضحا ومحتملا وغايته الأساسية هي الإفادة.

ج ـ الإثبات confirmation وهو لحظة البرهان أو الدحض، وغايته الإثبات والسرد هو الإفادة.

د ـ الخاتمة peroraison في الخاتمة يختصر الخطاب وتقدم خلاصة وجدانية عامة.

3ـ الأسلوب L' elocution: أو الصياغة اللفظية للخطاب، وهو عند القدماء مستويات ثلاثة: نبيل وبسيط ومتوسط. ويكمن في اختيار الألفاظ وتركيبها وتراعى فيه الصحة والوضوح والمناسبة للموضوع والأناقة المتمثلة في اختيار الألفاظ والصور والتجنيس والإيقاع.

4ـ الفعل L' action: وهو الانتقال إلى الإنجاز بوصفه إلقاء الخطاب مع ما يتطلبه ذلك من حركات محاكاتية وتعابير قسمات الوجه. إذ أن لكل حالة مروية تعبير ملحمي خاص بها.

5ـ الذاكرة La mémoire: وهو عبارة عن خزان الخطاب في الذاكرة وحفظه تمهيدا لإلقائه مرتجلا[10].

الفصاحـــة:

لقد عرف أرسطو الفصاحة بأنها: «امتلاك مادة الخطاب. يجب أيضا أن نتكلم كما يجب. وهنا الشرط الأساسي لإعطاء الخطاب مظهرا جيدا.» [11] . فالفصاحة بهذا المعنى هي تحيين لخطاب المتكلم، وهذا التحيين مشروط بلباقة التكلم إلى حين إتمام تتمة عملية استدراج المستمع للتأثير عليه. لأن الهدف الأساسي من استعمال الفصاحة هو جعل الطرف الآخر متعاطفا مع قضيتك، وهذا لن يتم إلا بطريقة كلامية مميزة فهي ليست واحدة، بل تخضع لمقام ولشخصية المتكلم وأخيرا لطبيعة القضية المراد الدفاع عنها. وهذا ما يؤكده كلام باسكال حين يقول بأن الفصاحة الحقيقية هي التي تسخر من الفصاحة نفسها [12] . وهو ما يذهب إليه كانتيليان حين يقول بأن الفصاحة الحقيقية يجب أن تكون تلقائية وتسخر من القواعد. وعليه

تقابل الخطباء (معلمو الفصاحة) بالسفسطائيين وباختصاصي وتقنيي الخطاب. إذا كان هذا هو المفهوم العام للفصاحة فإن استعمالها قد عرفا جدلا في الثقاة الغربية، وذلك منذ ما يعرف بخصام الخطابة المقدسة. بحيث نجد الأكاديمي الفرنسي جوابو دي بـGoibaud de Bois الذي طالب بإبعاد الفصاحة من المنبر بحجة أنها نتاج بشري وعليه فهي محرمة في الموعظة. وهناك أيضا الطرف المناويء لهذا الطرح ويمثله أنطوان أرنولد Antoine Arnauld الذي رد بعنف على السيد جوابو. مؤكدا على أن المبشرين لهم الحق في استعمال الفصاحة في خطبهم المنبرية. ذلك أنها وسيلة للتبليغ وإرشاد المؤمنين. لأن الغاية منها هي نشر وتوسيع الدين بين الناس في الكنائس والأديرة وغيرها من الأماكن المقدسة التي يرتادها المؤمنون. وبما أن المبشرين لهم دور الإقناع فلا سبيل لهم غير المسلك البلاغي.

البرهنـــة:

أما العنصر الثاني في عملية تحيين الفن البلاغي الذي هو البرهنة. فتحديده وتعريفه يقتضي الرجوع إلى أصوله الأولى. صحيح أن أرسطو هو أب البرهنة. علينا أن لا نغفل الجهود التي قام بها من قبله في القرن الخامس قبل الميلاد يوم كانت صقلية تحت حكم الجبارين اللذان صادرا الأراضي ومنحها لجيوشهما. ففي سنة 467 قبل الميلاد عصفت ثورة بهؤلاء الجبابرة. وبدأ أصحاب الأرض يطالبون بعودتها إليهم. في هذه الفترة بالذات. وضع جورجياس وتيسياس الطريقة العقلانية للتحدث أمام المحكمة. فلنعد إلى أرسطو الذي وضع الأسس المتينة للبرهنة وذلك بتمييزه أربعة أنواع من البرهنة هي:

1- البرهنة الجدلية التي يمكن أن تقدم:

أ- المقدمات المنطقية كاحتمالات علما بأنها لم تكن كذلك أبدا.

ب- خلق خاتمات لا تملك مقدمات منطقية.

2- البرهنة البرهانية التي تستند على شكل قياسي (قياس يستند إلى المحتمل

والممكن الذي تكون فيه كل مقدمة منطقية مصحوبة بدليلها). والتعيين ينتمي

إلى هذا النوع من البرهنة.

3ـ البرهنة الخطابية التي تستند على القياس الإضماري (قياس بمقدمة واحدة) ويسمى ايضا القياس الخطابي.

4ـ البرهنة العلمية التي تستعين بالقياس الإثباتي، وتستند على مقدمات منطقية مطروحة كحقيقية وأولية مطلقا(13).

فهذه الأنواع البرهانية الأربعة، في نظر ارسطو هي التي بها تتم عملية الإقناع والتي على الخطيب الالتزام بها ليدحض التهم الموجهة إليه وتوصيل البراهين والحجج التي تقنع المتحدث إليه. فهذه العلاقة ليست بسيطة وإنما وجودها يقتضي نسبة من الوعي الفردي والجماعي بالفلسفة والخطابة والفصاحة وشؤون القانون. أما توفرها فيفضي بالضرورة إلى مجتمع واع وهو المجتمع الجدير بالفلسفة والديمقراطية.

عبد الرحمان مزيان

جامعة بشار

الإحالات:

1-Michel Pougeoise. Dictionnaire de rhétorique. Paris 2004. P202.

2 ـ ثيودور اويزرمان: تطور الفكر الفلسفي. ترجمة سمير كرم. دار الطليعة بيروت. الطبعة الرابعة سنة 1988. ص 19.

3- Guthrie. W. K. C. Les sophistes. Ed PAYOT. Paris 1976. P 18

4-Oswald. Ducrot , Jean – Marie Schaeffer : Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Ed seuil. Paris 1995 P :166/167.

5- Chamoux François : La civilisation grecque, Ed Arthaud Paris 1988. P 232.

6 ـ ابن رشد: تلخيص السفسطة لأرسطوطاليس: ضبطه وعلق عليه موفق فوزي الجبر. - التكوين للطباعة والنشر. الطبعة الأولى 2006 ص12.

7 ـ مرجع سابق ARISTOTE : Rhétorique. 1355b

8- Robrieux Jean – Jacques : Rhetorique et argumentation. Ed Nathan. 2° Ed. Paris 2000. P10.

9-المرجع نفسه ص16.

10- مورو فرانسوا: البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية. ترجمة محمد الوالي وجرير عائشة. منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي. الطبعة
سنة 1989 الصفحة 6/

11- ARISTOTE : Rhétorique. III 1403b. traduction : C.E RUELLE. Ed livre de poche PARIS 1999. P 297/298

12- مرجع سابق P111 Dictionnaire de rhétorique

13- المرجع نفسه ص 57.